

المحاضرة الأولى: نزعة التمرد في الشعر الجاهلي

1. مفهوم الصعلكة:

الصعاليك: «جمع صعلوك وهو الفقير: ويطلق لفظ الصعاليك - في عالم الأدب - على فئة من الفقراء اتخذوا لأنفسهم طريقة خاصة في حياتهم، فسلكوا سلوكاً له سمات معينة، أهمها: الأنفة والإباء والترفع عن الصغائر والدنايا وحقير الأعمال، معتمدين في حياتهم على القوة والبطش وانتهاز الفرص وخفة الحركة وسرعة الجري والمهجوم الخاطف والسلب والنهب والفتك بالأعداء مع الحرص على البر والاهتمام بالمرضى والضعفاء والمحتاجين.»

فالصعاليك: «جماعة فقراء من قبائل شتى، جمعت بينهم الخصاصة والحاجة وإعوازهم من مال هو عند غيرهم، فخرجوا على قبائلهم وتحلوا من نظمها، وأنكرهم قومهم، وأخذوا هم أنفسهم بالإغارة والنهب وسلب القبائل والأفراد ما لهم ثم توزيعها فيما بينهم، وكانوا رجالاً أشداء عدائين، يسبقون الخيل، خبيرين بدروب الصحراء ومجاهلها، كراماً، حديدي الإرادة، حسني الحيلة للخلاص إذا أسروا ... نذكر منهم ممن كان يعيش في منطقة الحجاز: الشنفرى وتأبط شراً، فهؤلاء وزملاؤهم مثلوا الخروج على النظام القبلي، وجعلوا وكدهم الحصول على المال ولو قتلوا أصحابه، لا يبالون في هذا قرابة. وقد طرحوا عن كواهلهم تقاليد العرب إلا ما ارتضوه لأنفسهم؛ يعطفون على الفقراء والمرضى والضعفاء، ويبدلون ما عندهم في سخاء، ويجمعون بين صفتي الكرم والسلب، فهم لصوص كرام شجعان، يعفون عن المحارم.»

2. نشأة الصعلكة:

إن ما يميز المجتمع العربي في العصر الجاهلي اعتماده على النظام القبلي، بمعنى أن الفكر الجماعي هو السائد، وعليه فالصعلكة استثناء مجتمعي، إذ يخرج الفرد عن طوعية الجماعة حيث إنه لا يعترف بالأعراف القبلية السائدة آنذاك، لاعتبارات إقصائية تهميشية، ومنه فإن «الظاهرة المهمة التي تلفت النظر في حياة صعاليك

العرب الاجتماعية هي فقد الإحساس بالعصية القبلية التي كانت قوام المجتمع الجاهلي، وتطورها في نفوسهم إلى "عصية مذهبية". وهي ظاهرة من السهل تحليلها بعدما فهمنا الظروف الاجتماعية التي وجد فيها هؤلاء الصعاليك، فأما الخلاء والشذاذ فقد تخلت قبائلهم عنهم، وسحبت منهم "الجنسية القبلية"، فكان من الطبيعي أن يفقدوا إيمانهم بكل معاني القبلية، وأن يكفروا بتلك العصية القبلية التي لم يعد لها قيمة في حياتهم، بل قد ينقلبون انقلاباً تاماً فتصبح صلتهم بقبائلهم صلة عداوة، فيوجهون غزواتهم إليها، كما فعل قيس بن الحداية لما خلعت قبييلته، فجمع لهم "شذاذاً من العرب، وفتاكاً من قومه، وأغار عليهم بهم"، فنحن هنا أمام حالة شاذة في المجتمع الجاهلي، يغير فيها بعض القبيلة على بعضها. وأما الأغربة فقد أدركوا أن قبائلهم لا تكاد تعترف بهم، بل تكاد تنكر صلتها بهم، فلم يكن هناك إذن ما يوجب حرصهم على تلك العصية القبلية لأنها مرفوضة من جانب القبيلة.»

3. أسباب الصعلكة:

يرجع نشوء هذه ظاهرة الصعلكة إلى أسباب عدة، فقد «كان الصعاليك أول ثورة واقعية متمردة في الشعر العربي، وقد اتخذ الصعلوك الإغارة والغزو شعاراً له، غير أن هذا الشعار قد اتخذ وجهين في التطبيق، فمنهم من طبقه بهدف التغلب على واقع اقتصادي قاسٍ ساد المجتمع، ومنهم من طبقه بقصد السلب والنهب، والصعاليك يشتركون في دوافعهم: الفقر والإحساس بالظلم وفقدان المساواة والحرية، وإن اختلفوا في الوسائل، ويتحدون في نتائج تلك الدوافع وهو رفع الظلم والانتقام من الأثرياء والمستعبدين، ويبدو أنهم أرادوا أن يشذوا عن ذلك الواقع ما داموا يرفضونه، فأحدثوا أول صدع في قوي الأثر تجلى في ملامح شعرهم الخاصة، واتسمت قصائدهم بالقصر، وتناول موقفاً واحداً، فاتسمت بالوحدة الموضوعية، وجاء شعراً واقعياً التزم أصحاب به.»

وجد الصعاليك أنفسهم أمام حتمية التمرد على قبائلهم بغية الخطوة بحياة أفضل كانوا قد حرموا منها بسبب أعراف جائرة وعادات ظالمة، في حين أنهم لو استسلموا لواقعهم الحياتي لبأؤوا بالذل والهوان، «وينظر هؤلاء الفقراء الجياع، المحتقرون من مجتمعهم، المنبوذون من إخوانهم في الإنسانية، إلى الحياة ليشقوا لهم طريقاً في زحمتها، وقد جردوا من كل وسائلها المشروعة، فلا يجدون أمامهم إلا أمرين: إما أن يقبلوا هذه الحياة الذليلة المهينة التي يحبوها على هامش المجتمع، في أطرافه البعيدة، خلف أديار البيوت، يخدمون الأغنياء، أو ينتظرون فضل ثرائهم، أو يستجدونهم في ذلة واستكانة، وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة أبية،

يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم، وينتزعون لقمة العيش من أيدي من حرموهم منها، دون أن يبالوا في سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة، فالحق للقوة، والغاية تبرر الوسيلة.»

ومن الأسباب أيضا ما جاء في كتاب " قصة الأدب في الحجاز": «والصعلوك يفارق قومه، ويقلبي عشيرته؛ لأنها تقيم على ضيم، وهو يأبى الضيم، ولأنها تذيع السر، وهو يحفظ السر، ولأنها تخلد الجاني بما ارتكب من جنایات، وهو ينفر من هذا الخذلان. ولذا فهو يلتمس له مضطربا في الأرض ينأى به عن الأذى، ومنعزلا فيها يشعره بالحرية والكرامة، ويقيه أسباب القلى والبغض، وهو يستبدل بأهله وعشيرته أهلا وعشيرة من الحيوان والوحش، من كل ذئب قوي سريع ونمر أرقط ناعم الأديم، وضع عرفاء "كثيفة شعر الرقبة"، من كل أبي باسل من هذه المخلوقات التي لا تذيع سرا ولا تخلد صديقا أيا كانت جريرته.»

4. طوائف الصعاليك:

الخلعاء: «مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائمهم مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحدادية وأبي الطحان القيني.»

يقول يوسف خليف: «الخلعاء والشذاذ فقد تخلت قبائلهم عنهم، وسحبت منهم "الجنسية القبلية"، فكان من الطبيعي أن يفقدوا إيمانهم بكل معاني القبلية، وأن يكفروا بتلك العصبية القبلية التي لم يعد لها قيمة في حياتهم، بل قد ينقلبون انقلابا تاما فتصبح صلتهم بقبائلهم صلة عداوة، فيوجهون غزواتهم إليها، كما فعل قيس بن الحدادية لما خلعتة قبيلته، فجمع لهم "شذاذا من العرب، وفتاكا من قومه، وأغار عليهم بهم.»

أغربة العرب: «مجموعة من أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليك بن السلكة وتأبط شرًّا والشَّنْفَرى، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب.»

«وأما الأغربة فقد أدركوا أن قبائلهم لا تكاد تعترف بهم، بل تكاد تنكر صلتها بهم، فلم يكن هناك إذن ما يوجب حرصهم على تلك العصبية القبلية لأنها مرفوضة من جانب القبيلة.»

«عنتره أحد أغرب العرب وهم ثلاثة عنتره وأمه سوداء واسمها زبيبة، وخفاف بن ندبة وأبوه عمير من بني سليم وأمه سوداء وإليها نسب والسليك بن السلكة من بني سعد وأمه اسمها السلكة وإليها نسب وهو أحد الصعاليك العرب الشجعان.»

محترفو الصعلكة: «مجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات؛ غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تترلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي.»

5. مصادر شعر الصعاليك:

من أهم مصادر شعر الصعاليك التي اعتمد عليها أصحابها في تكوين مادتهم اللغوية والشعرية نجد: «المصدر الأول من مصادر شعر الصعاليك هو قبائلهم نفسها. وقد رأينا أن الصعاليك الخلعاء الذين تبرأت منهم قبائلهم، وطردتهم من حماها، قد استجاروا ببعض القبائل أو ببعض ساداتها، إما استجارة دائمة وإما استجارة مؤقتة. ومن الطبيعي أن يتحدث شعراء هذه الطائفة من الصعاليك الشذاذ عن هذا الجوار في شعرهم، فيمدحوا من أجاروهم، ويثنوا عليهم بما يرونه رداً لذلك الدين الذي طوقت به أعناقهم. ومن الطبيعي أيضاً أن يعرضوا لقبائلهم التي خلعتهم، فيكيلوا لها الهجاء، ويخصوا بالذات أولئك الذين كانوا سببا في خلعتهم، ومن الطبيعي أن تحرص هذه القبائل التي أجارتهم، هؤلاء السادة الذين أنزلوهم في حماهم، على هذا الشعر حرصاً شديداً، وأن يعملوا على إذاعته بين العرب؛ لأنه تسجيل لبعض مفاخرهم، وإشادة ببعض أمجادهم، وليس ما يمنع من أن تذيب هذه القبائل ما قاله هؤلاء الصعاليك في قبائلهم التي خلعتهم؛ لأنه فرصة للنيل منها.

وإذن فالمصدر الثاني من مصادر شعر الصعاليك هي تلك القبائل التي استجار بها الخلعاء منهم. والمصدر الثالث من مصادر شعر الصعاليك هم الصعاليك أنفسهم. وأظن أنه ليست هناك غرابة في أن يروي الصعاليك شعر شعرائهم، ويتغنوا به، ويرددوه في كل مناسبة؛ لأنه صورة من حياتهم، وصدى لما يدور في نفوسهم. ومن الطبيعي أن يعمل هؤلاء الصعاليك على أن يذيعوا هذا الشعر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً؛ لأنه تعبير عن مذهبهم في الحياة، وتعليل لذلك الأسلوب الذي سلكوه في حياتهم، لعلهم بهذا يضمنون إليه أنصاراً جدداً، أو يقنعون مجتمعهم بأنهم على حق في حركتهم. وساعدهم على هذا ما كان يجده هذا الشعر من إعجاب في الأوساط الشعبية التي كانت تفتن بهذا اللون من الشعر، بما فيه من غرابة، وما فيه من بطولة، ولأنه تعبير عن أشياء لعلهم أكثر من يحسونها ويشعرون بها. ولعل شعر عروة بن الورد وصل إلينا أكثره عن طريق هذا المصدر؛ لأن عروة كان يمثل شخصية الزعيم الشعبي صاحب المذهب الذي يحرص على أن يضم إليه أكبر عدد ممكن من الأنصار، ولعل هذا هو السبب في أن شعر عروة هو أكبر مجموعة من شعر الصعاليك وصلت إلينا.»

7. الخصائص الفنية والموضوعية لشعر الصعاليك:

تدور خصائص شعر الصعاليك حول محورين : الأول موضوعي والثاني فني، ويترتب الجانب الفني على الموضوعي كما سيتضح لنا:

* التلخص من المقدمات الطللية، وهذا أمر طبيعي ما دام الشعراء الصعاليك يحرصون على الوحدة الموضوعية في شعرهم، إذ أن المقدمات الطللية تخل- بطبيعة الحال - بهذه الوحدة الموضوعية، وما عدا تلك المجموعة التقليدية التي أشرنا إليها، حيث لا نعثر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك على مقطوعة أو قصيدة تبدأ بمقدمة غزلية، وإنما اتخذ الشعراء الصعاليك لأنفسهم مذهباً آخر استعاضوا به عن هذه المقدمات ، وهو مبدأ جعلوا محوره (حواء الخالدة) أيضاً، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين ، أو تلك المرأة التي يتدلّه الشاعر في حبها، ويكي أيامه معها، ويقف على أطلال ديارها ، ولكنها المرأة المحبة الحريصة على فارسها، التي تدعوه دائماً إلى المحافظة على حياته، إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هي، حيث كانت لكل فارس سيدة يضع كل مفاخره بين يديها، ومن هنا يمكن أن نطلق على هذه المقدمات النسائية عند الشعراء الصعاليك مقدمات الفروسية في شعر الصعاليك في مقابل المقدمات الطللية في الشعر القبلي.

* القصصية، حيث تدور القصيدة لديهم حول تجربة معينة من تجاربهم العديدة، يسجلون فيها كل ما يدور حولهم، ونصل إلى تقرير ظاهرة مترتبة على هذه الفكرة ، وهي ظاهرة القصصية في شعر الصعاليك ، فشعر الصعاليك في مجموعته شعر قصصي، يسجل فيه الشاعر الصعلوك كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة، التي تصلح مادة طيبة للفن القصصي، مثل حوادث مغامراتهم الجريئة التي كانوا يقومون بها فرادى وجماعات، وما كان يدور فيها من صراع مرير ، وأخبار فرار عدوهم وتشردهم في أرجاء الصحراء، وتربصهم فوق المراقب في انتظار ضحاياهم، هذا كله أدى إلى ظهور الجانب القصصي من ناحية، وتوفر قدر من الوحدة الموضوعية من ناحية ثانية، الأمر الذي ترتب عليه اختفاء التقاليد المعروفة في بناء القصيدة الجاهلية، فلم تعد هناك مقدمات طللية أو غزلية، بل إن الشاعر يعالج موضوعه مباشرة وبإيجاز.

* أدى ارتباط أدبهم بواقع حياتهم، الموغلة في القسوة والتشرد، تحت أقسى الظروف إلى تصوير نوازعهم الداخلية إزاء هذا الوضع القاسي، فبرز النزوع إلى شيء من التحليل النفسي، وتصوير ردود فعلهم إزاء هذا النمط الصارم، بصدق النقل عن الحياة، ومطابقة الصورة للأصل، بحيث لا يشعر الناظر في شعر الصعاليك باختلاف بين الصورة الشعرية وأصلها في الحياة، أو بين ما يراه في شعرهم وما يشاهده في الحياة، حتى يُحَيَّل إليه أنه أمام مجموعة من الصور الفوتوغرافية.

* تنتمي غالبية قصائدهم إلى الرجز، ويرجع ذلك إلى طوعية هذا اللون من الشعر للارتجال، وسيورته بين الناس وشعبيته، وارتباطه الوثيق بالكر والفر والمنازلة، فهو ضرب من ضروب الشعر يرتجز به المقاتلون، وهو ما يعتبر قريبا من طبيعة هؤلاء الشعراء، فحين ننظر إلى شعر الصعاليك الذي قالوه قبيل مصارعهم نجد أن كثيرا منه كان رجزا، فقيس بن الحداية يقاتل أعداءه وهو يرتجز حتى يقتل، والشنفرى في ساعته الأخيرة حين يضرب أعداؤه يده فيقطعوها يرثيها رجزا، حاثا أصحابه على الثبات وعدم الفرار، حتى بلغت أراجيزه في هذه الفترة الحرجة من حياته خمسا.

* «هم انفردوا بأنفسهم في الحياة وانفردوا بها في الشعر، فكان قصيدهم مثالا قويا لشخصياتهم وسلوكهم، لا يكتمون منه شيئا ولا يقصرون في التعبير عنه، فامتازوا بالصدق والصراحة والقوة، وظهرت هذه الصفات في فنهم، فكان طريفا مقبولا، هو من الشعر الغنائي الصحيح الذي يعتز بالشخصية الفردية، وبهذا المذهب الثوري أو الاشتراكي.

والذي يعيننا هنا أن شعر هؤلاء كان مثالا لشعر سياسي طريف، هو شعر الثورة والكفر بأوضاع فرضت عليهم الحرمان والفقر المدقع، بجانب هذا الفقر العام في البلاد كلها، حتى كانت حياة العرب خشنة مضطربة المناهج.

وفي شعر الشنفرى وتأبط شرا من صعاليك الحجاز، وغيرهم من صعاليك العرب عامة، نرى مثالا واضحا لشعر المعارضة الثائر، الذي يصور تصويرا دقيقا حياة الصعاليك وفتكهم وجرائمهم، وقدرتهم الفائقة على العدو، وصبرهم على الجوع والمكاره، وخروجهم على نظام القبيلة العام، ونقدتهم لهذا النظام، وثورتهم على الأغنياء البخلاء الذين يختصون بالأموال دون الفقراء.»

* «وشعر الصعاليك في العصر الجاهلي، يرينا كيف كان حال الفقراء، وما كان أكثرهم في ذلك العصر، فتستطيع أن تتبين منه بوضوح، ما كانوا فيه من بؤس، وما كانوا يلاقون من شظف العيش، فقد كانوا يعيشون في أدنى درجات الكفاف، وما كان أسعد بعضهم حينما يجدون لقمة من كريم، أو يكلفون بعمل ولو حقير، ومن ناحية أخرى، يرينا شعر الصعاليك كيف حاولت بعض النفوس منهم في هذه الظروف أن يشقوا طريقهم في الحياة بوسائل القوة والإرهاب.»

المحاضرة الثانية: أثر الإسلام في الشعر العربي القديم

1. الإسلام والشعر:

أحدث نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ثورة عميقة في مجتمع شبه الجزيرة العربية، حيث عمل على نشر الفضيلة و دَمَّ الرذيلة، كما رَغَّب في مكارم الأخلاق، ورَغَّب عن سفاسفها، تركية للنفوس، وتطهيراً للقلوب، وجلاء للأبصار والبصائر ، فكان له الأثر الجلي على الحياة عامة، والأدبية منها خاصة، ومنه فالإسلام لم يدعو إلى نبذ الشعر على العموم، وإنما استثنى في النهي ما خالف الشريعة منه، «الحقيقة الواضحة أن الإسلام لم يحمل العرب على الانشغال عن الشعر وروايته؛ لأنه لم يكن يملك هذا لو أراد، ولم يكن له أن يريد هذا الأمر مع ما للشعر من سلطان على نفوس العرب، ذلك أنه علم قوم لم يكن لهم علم غيره.

وكل ما كان من آثار لمحيء الإسلام على الشعر أنه حاول تغيير مهمته في الحياة العربية وتزويده بقيم وأهداف جديدة تتفق وطبيعة الفكرة الإسلامية، فأخذ يخلع طوابعه الخاصة على الشعر؛ ليتحول من ألهية تتلهى بها طبقة معينة من الناس إلى وسيلة نافعة، تُسَخَّر من أجل مجموع المسلمين، وتكون بمثابة طاقة نفسية تخدم هذه الجماعة، وتعمل في سبيل غاياتها ومثلها.

ومن ثم كان على الشعر أن يطرح عنه مفهومه القديم، وأن يتقيد بقيم معينة، فرضها الدين الجديد، وأن يستهدف غاياته الرفيعة إذا أراد أن يكون له وجود في هذه الحياة الجديدة، وإلا كان من الخير أن يصمت.» ومنه فموقف الإسلام من الشعر إنما بني على ما وافق لفظه ومعناه القيم الإسلامية والمثل العليا التي دعا إليها، «الإسلام لم يقف من الشعر موقفاً عدائياً، ولم يحاول أن يحمل العرب على الانشغال عنه، وإنما كان موقفه منه كموقفه من كل مظاهر الحياة المتخلفة عن الجاهلية؛ إذ حاول أن ينفي عنها طوابعها التي لا تتلاءم مع الدعوة الإسلامية، ثم يدفعها للانسياق في إحياءات الحياة الإسلامية ومتطلباتها، في نطاق من تعاليم الدين الجديد.

فلم يكن من هدف الدين الإسلامي، ولا من هدف رسوله صلى الله عليه وسلم في شيء أن يحول بين العرب وبين الشعر، وإنما كان الهدف أن يوضع الشعر موضعه، وأن يخطط له بما يجعله ذا قيمة فاعلة في حياة المسلمين، لما كان يدركه من عمق الصلة بين حياة العرب وبينه.. وأنه لن يستطيع أن يقصر حياتهم الفنية على ما كان من إعجاز القرآن وترتيبه، ومن ثم فقد أثر أن يحوله عن وجهته الجاهلية إلى هذا الأفق الجديد، فحرض الشعراء، ودعا لهم وأغراهم على السير فيه، بينما ضرب على أيدي الشعراء الذين ظلوا يعيشون بمفاهيم

جاهلية، يتخذونها وسيلة لمحاربة الإسلام والتنفير منه، وإثارة الفتن والعصبيات، وإيذاء النفوس، وإشاعة البغضاء بين الناس.

حمل الإسلام حملة شعواء على هؤلاء الشعراء وعلى شعرهم تجلت في سورة الشعراء، وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فصورهم في صورة بشعة، ولم يستثن منهم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، وهؤلاء هم الذين نافحوا عن الدين، و زادوا عن العقيدة. «
إن فن الشعر من جملة ما هذّبه الإسلام وارتقى به لفظاً ومعنى: «فقد مده بألفاظ جديدة ومعاني لم يكن العرب ليدركوها على غرار: الفرقان، المنافق، الإيمان، كما أعطى لبعض الألفاظ معاني ودلالات جديدة مغايرة لتلك التي كانت عليها في الجاهلية، كألفاظ: المؤمن، المسلم، الكافر...»، ودفعهم إلى اختيار الألفاظ العفيفة والمعاني الشريفة التي جاء بها الإسلام: «لقد حظر عليهم الإسلام أن يلموا منه إلا بما عفا لفظه وشرف معناه... ومن أجل ذلك تحولوا عن بعض معانيهم الشعرية التي أجادوها وأبدعوا فيها، إلى المعاني التي أقرها الدين وارتضاها، ومن شعرائهم من امتنع عن قول الشعر في الإسلام، لأن الله أبدله به خيراً.»

2. شعر الفتوحات الإسلامية:

1.2 مفهومه:

إن الفتوحات الإسلامية فتوحات للقلوب والأبصار قبل البلدان والأمصار، الغرض منها إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام، والأخذ بأيديهم إلى برّ النجاة، ليكتب الله تعالى النصر للمؤمنين والإظهار للحق ولو كره الكافرون، ومجالات الفتوحات ليست مقتصرة على ميدان بعينه وإنما مسّت كل الميادين، فكانت انتصاراً على كل الأصعدة، وفتحة مبيّنة للناس كافة إلا من أبى، وعليه «لا ينحصر الفتوح الانتصار العسكري فحسب، بل يتعداه إلى الانتصار في مختلف الميادين العسكرية والأدبية والأخلاقية، والتي سببت مجتمعة دخول الأقوام في البلاد المفتوحة عسكرياً في دين الإسلام بقناعة ورضا، مما سبب انتصار عقيدة التوحيد على الشرك في تلك البلدان.»

شعر الفتوح الإسلامية هو: «شعر المحاربين من العرب المسلمين في فترة مشرقة من فترات تاريخهم، بل لعلها أكثرها إشراقاً، فهي الفترة التي تزخر بأسمى المشاعر الروحية الإسلامية، ويتجلى فيها أثر الإسلام عقيدة وفكرة في نفوس العرب، وفي حملهم على البذل والتضحية والفداء، كما أنها تصور الانقلاب الهائل الذي أحدثه الإسلام عن طريق الارتقاء بالنوازع الوجدانية القبلية والفردية الضيقة الحدود إلى وجدان متوحد، من أجل هدف واحد نبيل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ، وَاعْتَصِمُوا

بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ { (آل عمران: 102، 103)

وإلى جانب هذا التمثيل الصادق للأخوة الإسلامية تمثل العرب دينهم خير دين ارتضاه الله لهم، وأن نبيهم الذي بعث فيهم إنما بعث إلى الناس كافة، وأنهم هم ورثته في هداية هذه الأمم الضالة إلى طريق الحق، وقد خلق هذا في نفوسهم شعوراً متوثباً، لا يقنع بالانطواء على ما تأجج في صدورهم من ألق العقيدة، فاندفعوا ينتشرون بهذا الشعور خارج حدودهم إلى الشرق والشمال والغرب، لا يأبهون بقوة في الأرض، وهم على ثقة كاملة من نصر الله لهم، وكلهم أمل في إحدى الحسينين، الشهادة أو الظفر.

كان شعر الفتوحات مواكبا للمعارك التي خاضها المسلمون ضد المشركين، إذ أسهمت تلك المواجهات العسكرية في إذكاء القرائح الشاعرية، وألهمت الشعراء على النظم، المشهورين منهم أم المغمورين على حد سواء: «أبرزت شاعرية كثير من الشعراء المغمورين الذين لم يذع لهم شعر قبل اشتراكهم فيها، فسارت بأشعارهم الركبان، وسجلت أسماءهم في أذهان العرب، ومن هؤلاء على سبيل المثال: نافع بن الأسود بن قبة التميمي وعمرو بن مالك الزهري، والأعور الشنّي وحسان بن منذر الضبي وكثير بن الغريزة النهشلي وزهير بن عبد شمس البجلي وغيرهم.»

2.2 أنواعه:

1.2.2 قصيد ورجز: يقول عبد المتعال القاضي: «إن شعراء الفتوح جميعاً قد خضعوا خضوعاً متماثلاً للطوايع التي طبعت بها الفتوح شعرهم جميعاً، ففضلاً عن تركيز اهتمامهم ونوازعهم في المسؤولية الضخمة التي يحملونها، فإن ظروف القتال وقسوة الحياة تحت ظلال السيوف لم تكن لتعينهم على التنفس الغنائي الهادي، والتعبير الوجداني المنساب، في قصائد متأنية مديدة النفس.»

ولهذا كان تنفسهم سريعاً لاهثاً ومتلاحقاً، وخاطفاً ومحدوداً في مضمونه وفي شكله بطبيعة الحال، فاتخذ القريض شكل المقطعات القصيرة.

من دواعي النظم بما لا يزيد عن عشرة أبيات، أو ما يعرف بالمقطوعات هو ما يفرضه المقام، والحالة التي يكون عليها الشاعر، إذ أن همّة الأول هو الجهاد في سبيل الله، فالشعر عنده وسيلة لا غاية، يقول عبد المتعال القاضي: «إن الشاعر المجاهد ليريد - قبل أن يشعر أنه يريد - أن ينفذ ما بنفسه ابتداء دون تقيد بتقاليد أو تمسك بنظم في التعبير، إلا ما يفرضه طبيعة الإحساس النفسي، والحالة الشعورية التي تتقمصه.

ولهذا فلن نجد بين شعر الفتح كله قصيدة واحدة، تزيد أبياتها عن عشرة أبيات، ولن نجد قصيدة تشتمل على أكثر من غرض واحد إلا فيما ندر، فكل مقطوعة تستقل بموضوع واحد يعبر عنه الشاعر هذا التعبير المندفع السريع.

وأدى هذا إلى جانب انطلاق الشعر على ألسنة الكثيرين من الفاتحين العاديين إلى أن يكثر الرجز، وأن ينفك عن وظيفته التي كانت له في الجاهلية كأداة للتحميس، وشحذ القوى وإلى أن يشارك القصيد في التعبير عن بعض موضوعاته التي تخرج عما ألفه الرجز في الجاهلية من الحرب والمفاخرة والحداء، فكاد يكون قسيم الشعر القصائدي، وإن ظل في شكله ومضمونه لا ينم عن إعداد أو عناية؛ نتيجة قربيه من السليقة الفطرية للعرب، وارتجاله في المواطن المختلفة، وإن ظلت له نفس المهمة في التحميس.»

2.2.2 شعر الجهاد: اتخذ الشعراء المجاهدون في سبيل الله من الشعر سجلا سجلوا من خلاله

فتوحاتهم، ووثقوا انتصاراتهم، وأشادوا ببطولاتهم، وأثنوا على من ماتوا في سبيل الله خيرا، يقول عبد المتعال القاضي: «لا شك في أن ارتباط الفتوح بفكرة الجهاد التي تمثلت بلورة نورانية تخطف قلوب المؤمنين، كان له أثر كبير في ترسيب المثل الإسلامية في نفوس المجاهدين من الشعراء، فانطلقت ألسنتهم بما رأينا من الشعر الذي واكب عمليات الفتوح خطوة خطوة.»

ويقول أيضا: «قد تداول هذه المعاني أولئك المجاهدون الشعراء الذين اجتذبهم ألق الجهاد، فصم آذانهم عن كل دعاء إلا دعوة الله، فتركوا من ورائهم أهليهم وذويهم يناشدونهم البقاء إلى جانبهم، حرصا عليهم ورغبة في سلامتهم، ولكن كيف لهم أن يمنعوا أنفسهم طلبتها، وكيف لهم أن يقعدوا عن واجب أوجهه الله ودعا إليه، وليسوا ممن يصرح لهم بالعودة. فهذه امرأة النابغة الجعدي تناشده الله أن يبقى، ولكنه يجيبها بأنه لا عذر له في القعود:

باتت تذكرني بالله قاعدة والدمع ينهل من شأنيهما سبلا
يا بنت عمي كتاب الله أخرجني كرها وهل أمنع الله ما بذلا
فإن رجعت فرب الناس أرجعني وإن لحقت بربي فابتغي بدلا
ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرني أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا»

«من أمثلة هذا الشعر الذي يشيد ببلاء الجماعة الإسلامية وبسالتها وإيقاعها بالعدو قول خليل بن المنذر

في يوم طاوس:

بطاوس ناهبنا الملوك وخيلنا عشية شهراك علون الرواسيا

أطاحت جموع الفرس من رأس حالق تراه كموار السحاب مناغيا
فلا يبعدن الله قومًا تتابعوا فقد خضبوا يوم اللقاء العواليا
وقد يجعل الشاعر تصوير المعركة سبيلًا إلى تصوير بلائه والإشادة بنفسه، كقول نعيم بن مقرن قائد المسلمين في وقعة واج روذ بهمذان، التي تصدى فيها "لموتا" قائد الفرس ونكل به تنكيلاً، قال:

ولما أتاني أن "موتا" ورهطه بني باسل جروا جنود الأعاجم
نخضت إليهم بالجنود مساميا لأمنع منهم ذمتي بالقواصم
فجئنا إليهم بالحديد كأننا جبال تراءى من فروع الغلاسم
فلما لقيناهم بما مستفيضة وقد جعلوا يسمون فعل المساهم
صدمناهم في واج روذ بجمعنا غداة رميناهم بإحدى العظام
فما صبروا في حومة الموت ساعة لحد الرماح والسيوف الصوارم
وقد يشيد الشاعر بنفسه مباشرة، فيصور شجاعته وبأسه وفعاله بالعدو وتفريجه كرب المسلمين، كما فعل عروة بن زيد الخيل الطائي، فقال في معركة نهاوند:

ألا طرقت رحلي وقد نام صحتي بإيوان شيرين المزخرف خلتي
ولو شهدت يومي جلولاء حربنا ويوم نهاوند المهول استهلتي
إذن لرأت ضرب امرئ غير حامل محيد بطعن الرمح أروع مصلتي
ولما دعوا يا عروج بن مهلهل ضربت جموع الفرس حتى تولت
دفعت عليهم رحلي وفوارسي وجردت سيفي فيهم ثم آلت
وقد يعتمد الشاعر إلى تصوير قوة الأعداء وثباتهم؛ ليتخذ ذلك سبيلًا إلى الفخر بنفسه وبكثيرته، مثل قول عاصم بن عمرو يوم المقر:

ألم ترنا غداة المقر فينا بأنهار وساكنها جهارا
لقينا من بني الأحرار فيها فوارس ما يريدون الفرارا
قتلناهم بما ثم انكفأنا إلى فم الفرات بما استجارا

هذه نماذج لشعر الجهاد، وهي في مجموعها لا تخرج عن فني الفخر والمدح الجاهليين. فالشاعر إذا أشاد بنفسه أو بقبيلته أو بكتيبته فإنما يفخر بها، شأنه في ذلك شأن أي شاعر جاهلي. وإذا أشاد بقائده أو زميله فإنما هو يمدحه، كأبي شاعر جاهلي، ولكن -برغم هذا- هناك فرق كبير.

فشعر الجهاد برغم كونه فخرًا إلا أنه يكتسي هذا الصبغ الإسلامي، الذي يتجلى في بروز فكرة الجهاد، التي وهبها الشاعر بلأه وكفاحه. وهو حينما يعلن أنه قد أصبح همه في الجهاد يفترق عن الشاعر الجاهلي، الذي كان يفخر بالتأثر والانتقام للقبيلة... وشيء آخر يختلف فيه شعر الجهاد عن الفخر الجاهلي، الذي أساسه القبلية والعصبية.»

3.2.2 الرثاء: حافظ الشعراء المسلمون على خصائص الرثاء مع تهذيب في الألفاظ والمعاني، فجاءت

مراثيهم تحمل معان مستوحاة من نصوص الوحيين، كالصبر وعدم الجزع، بل والفخر بمن مات في سبيل الله، «تبدلت السمائل التي كان يعددها الشعراء في مراثيهم، إذ أخضعوها للمقاييس الإسلامية الجديدة، فتحدثوا بسيرة لم تكن تعرفها الجاهلية، فيها المجد والتقوى والإيمان، وفيها الخير والبر والوفاء وفيها الرحمة والمهادية والنقاء.»

يقول عبد المتعال القاضي: «الرثاء، وهو غرض مستقل من أغراض شعر الفتح مقصود لذاته، وهو كشعر الجهاد تمجيد لبطولة الذين استشهدوا، وإشادة بفعالهم، ومواقفهم، والبكاء عليهم، وافتدائهم، وتعداد مآثرهم، وهو وإن كان يتفق مع الرثاء الجاهلي فيما يشيع فيه من الحزن والأسى، وما يغلب عليه من استشعار الأسف والجزع على الفقد، فإنه يختلف عنه فيما يمتلى به من روح التسليم بالقضاء، والامتثال لإرادة الله وحسن تقبلها، وتمثل ما أعده الله للشهداء من جزاء عظيم، كهذا الاستسلام الذي يبدو في رثاء أبي عامر بن غيلان لولده، الذي خرج غازيًا وأدركه طاعون عمواس؛ إذ يترجم الآية الكريمة: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} (الرحمن: 26)، في قوله:

عيني تجود بدمعها هتان سحا وتبكي فارس الفرسان

لو أستطيع جعلت مني عامرا تحت الضلوع وكل حي فان

وكهذا التسليم الذي يشيع في رثاء أبي الحباب - ذريح بن الحارث - لولده الذي استشهد في قتال الفرس، فيشبهه بالشهاب الذي حمده، ويشيد ببلائه في القتال، وانعدام نظيره في الفرسان إلى يوم الدين، لكنه يعود إلى اليقين بأن لكل أجل كتاب فيقول:

أبغى الحباب في الجهاد ولا أرى له شهاب ما دام لله ساجد

وكان الحباب كالشهاب حياته وكل شهاب لا محالة خامد»

4.2.2 شعر الحنين: يقول عبد المتعال القاضي: «ونعني به ذلك الشعر الذي يعبر عن أشواق الشاعر

التي كانت تملأ جوانبه، وعن المواجه التي كانت تلذع كبده، نتيجة بعده عن وطنه، عندما يتذكر مرابعه الأولى

فيحن إليها، ويذكر أهله الذين فارقهم، ويتمنى لقاءهم فيشكو بعده واغترابه عنهم، كهذا المجاهد الذي يشكو غربته إلى قمرية خالها غريبة مثله في مرو الشاهجان فقال:

أقمرية الوادي التي خان إلهاها من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فإننا كالنا بمرو الشاهجان غريب»

الحنين شعور نفسي داخلي يخالج مكنونات الشاعر، ويشعل بداخله العواطف الصادقة، والأحاسيس الجياشة، التي تفيض ألفاظاً محملة بمعان عميقة، يقول عبد المتعال القاضي: «موضوع الحنين على هذه الصورة باب رائع من أبواب الشعر الإسلامي، ذلك أنه يلتف في نطاق وجداني رفيع، تنسكب فيه أعماق المشاعر العاطفية في تدفق وحرارة وصدق.

ونحن لا نعرف لهذا الشعر شبيهاً يقابله في شعر الجاهلية على كثرة ما كان من ظعنهم ورحيلهم إلا ما كان يعرف من بكاء الأطلال.»

5.2.2 الوصف: يقول عبد المتعال القاضي: «وفي نفس الوقت عبر بعض الفاتحين عن إعجابهم بطبيعة البلدان التي افتتحوها، وتغنوا بجمالها إلى أهلهم في شبه الجزيرة، كما يبدو في شعر أبي بجيد الأسود بن قطبة التي يتغنى فيها بريف الري، فيقول:

رضينا بريف الري والري بلدة لها زينة في عيشها المتواتر
لها نشر في كل آخر ليلة تذكر أعراس الملوك الأكابر
وهذا سواد بن قحطبة يتغنى بجمال الطبيعة في جرجان، فيقول:
ألا أبلغ أسيداً إن عرضت بأننا بجرجان في خضر الرياض النواضر»

3.2 خصائص شعر الفتوحات:

1.3.2 الأثر الإسلامي في الصياغة: تعامل الإسلام مع الأغراض الشعرية التي كانت سائدة في العصر

الجاهلي وفق ما يتوافق وتعاليمه، فنبذ بعضها، وهذب أخرى، وأبقى بعضها على حالها، ومثال ذلك الفخر بالأنساب والأحساب والحماسة التي قيدها الإسلام بشروط تضيي عليها الطابع الإسلامي، فلا تفاخر إلا بالتقوى، ولا عصبية تعلي من شأن القبيلة، «فلم يعد الشاعر يفخر بإعلاء كلمة القبيلة أو رفع شأنها، ولا بكسب المغنم أو سبي الأعداء، بل صار يفخر بنيل الشهادة في سبيل الله، وبتأييد الملائكة لجند الله، وبانتصار المؤمنين الصادقين.»

يقول عبد المتعال القاضي: «وهذه الصورة الرائعة التي يصورها شعر الفتح للنضال الصادق من أجل الفكرة الإسلامية -تستمد ألوانها من المثل الإسلامية السامية، كالثقة المطلقة بما وعد الله، والاطمئنان إلى قضائه والتسليم به، كما يبدو في شعر الرثاء، وعلى الأخص فيما استحدثه المسلمون من رثاء للأشلاء واحتسابها.»

كما تباينت مقاصد الهجاء بين ما كان متعارفاً عليه في العصر الجاهلي من قذف وسبّ وشتم وتطاول على الأعراض، إلى هجاء لمن ضلّ سواء السبيل وأضلّ، ومنه فالهجاء في العصر الإسلامي موسوم بضوابط تبيح للشاعر هجاء خصوم الإسلام، «إذ لم يكن تسرعاً بالشعر إلى أعراض الناس، ولا قذفاً بألوان الشتائم والمساوئ، وإنما كان هجاء لمن ضلّ عن طريق الحق وتنكب سبيل الهداية.»

مما ميز شعر الفتوحات التزامه بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، والبعد عما كانت تدعو إليه الحياة الجاهلية بنبد مبادئها والعزوف عن تقاليدها، «واتسم هذا الشعر كله بالاتصال بوجدان جماعة المسلمين والصدور عنه، والعزوف عن تقاليد الشعر الجاهلي، ورفض كل ما لا ترتضيه الفكرة الإسلامية، فسكتت النعرات القومية المحلية، وخفت صوت الفخر القبلي، والإسلام وبالجهد في سبيله، واندثر الغزل الحسي، وأطيح بالمقدمات الطللية، وما كان يفخر به الفرسان من قبل برواية المغامرات المشتملة على الطرب والشراب والعبث. وإذا بالشعر في كل أغراضه ومعانيه يتلون بما لا يخدش الغايات السامية، وينطبع بطوابع إسلامية واضحة في معانيه وألفاظه.»

2.3.2 القصر والإيجاز: «فشعر الفتح مقطعات قصيرة في مجموعته، ونادراً ما نصادف قصيدة يزيد عدد أبياتها عن العشرة. فقد تخفف شعر الفتح من بعض التقاليد الفنية للقصيد العربي، وأصبح القصيد مقطعات قصيرة، لا تحتوي على أكثر من غرض واحد.

والإيجاز طابع كان يحظى بتقدير الفكر الإسلامي، فهذا القرآن الكريم معجزة الفصاحة والبلاغة في هذا الوقت يبلغ حد الروعة المذهلة في غير كثير من الإسهاب، أو الاستدلال فيما لا يحتاج إليهما. وهذا الرسول صلى الله عليه وسلم ييغض الثرثارين والمتفيهقين، ويعدمهم أبعد الناس منه مجالس يوم القيامة.

وهذه ظروف القتال وحياة الجند المليئة بأعباء الفتوح، والحركة الدائبة، وأهوال القتال، وشدائد اللقاء، لا تدعو إلى استقرار، كما لا تساعد على تمهل أو امتداد نفس أو غناء، أو تشويق للكلام، أو توليد للمعاني، بل إنما لتدعو إلى الإنجاز دعوة ملحة، وتدافع إليه دفعاً، وتضطّر إليه اضطراراً.»

3.3.2 العفوية والبساطة: «ولسنا نقصد بالعفوية التحلل من كل قيد، أو تقليد فني، أو نظام. كما أننا لا نعني بما خلّو هذا الشعر من أية قيمة جمالية فنية، إنما نعني بما انعدم الصقل والتهذيب والمعاودة

والمراجعة. وبالتالي انعدام التكلف والتقعر والتعمل. ونتج عن هذا أن شعر الفتح وبلا استثناء يتسم بالصدق والحرارة الانفعالية؛ كاستجابة نفسية حرة وطليقة من إसार العناية والصنعة. وواضح لمن يمعن في قراءة هذا الشعر أنه ثمرة خالصة للانفعالات النفسية، دون شحذ أو صقل، وأنه استجابة نفسية لما يشعر به الفرد في تدفق يناسب كانشياب الماء في المجاري الطبيعية، الخالية من الصنعة المستأنية والتدبير والتصميم السبقي. وكان ذلك أثرًا من آثار القيم الإسلامية الجديدة أيضًا تلك القيم التي تستمد من سماحة الإسلام وبساطته، وكراهة العمل والتكلف، وهي صفات عُنيَ الإسلام بغرسها في نفوس المسلمين عامة.

كما يمكن تلخيص خصائص شعر الفتوحات فيما يلي :

- الدعوة إلى القيم الإسلامية، والالتزام بلبثل السامية للعقيدة الإسلامية.
- الإيجاز في اللفظ والدقة في التصوير، بدون إسهاب مملّ أو إطناب مخلّ.
- التزام الشاعر بوحدة الموضوع، حيث نظم شعراء الفتوح مقطوعات على غرض واحد.
- العفوية من غير تكلف ولا تشدق.
- الخلو من الضنع والتكلف.

المحاضرة الثالثة: شعر الأحزاب السياسي في عصر بني أمية

1. الشعر السياسي:

1.1 تعريف:

يتناول الشعر السياسي القضايا المتعلقة بنظام الحاكم وأحوال المحكومين، والعلاقات الداخلية والخارجية للدولة، أي «ما يتصل بنظام الدول الداخلي أو بنفوذها الخارجي ومكانتها بين الدول». »

2.1 تطور الشعر السياسي:

ظهر الخلاف بعد وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حول من يخلف الرسول صلى الله عليه وسلم، فعبّر الشعراء عن آرائهم حول من هو أحق بحظوة الخلافة، لتكتسي أشعارهم طابعا سياسيا، كلّ ونظرتة وموقفه بحسب الاجتهادات والتقدير، ومثال ذلك الشاعر النعمان بن عجلان الذي يقول:

وكان خطاء ما أتينا و أنتم صوابا كأننا لا نؤيش ولا نهري
وقلتم حرام نصب سعد ونصبكم عتيق ابن عثمان حلال أبا بكر
وأهل أبو بكر لها خير قائم وإن عليا كان أخلق للأمر
وكانا هوانا في علي وإنه لأهل لها من حيث ندري ولا ندري
وهذا بحمد الله يشفي من العمى ويفتح آذانا ثقلن من الوقر
فلولا اتقاء الله لم تذهبوا بها ولكن هذا الخير أجمع للصبر
ولم نؤض إلا بالرضا ولربما ضربنا بأيدينا إلى أسفل الصدر

هذا شعر يبرز موقف الأنصار، ويبين تأييدهم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأنه الأجدر بالخلافة، إذ بايعه المسلمون بعد حادثة سقيفة بني ساعدة.

ولما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال الشاعر أيمن بن خزيمة الأسدي:

تفقد الذابحون عثمان ضاحية أي قتل حرام ذُبحوا ذبحوا
ضحوا بعثمان في الشهر الحرام ولم يخشوا علة مطمح الكف الذي طمحو
ماذا أرادوا ضلّ الله سعيهم من سفك دم ذلك الزاكي الذي سفحوا؟
إن الذين تولوا قتله سفهوا لاقوا أثاما وخسرانا فما ربّحوا

ومحمل القول أنه «لم تتبلور الأفكار السياسية بالمعنى الدقيق إلا بعد مقتل عثمان، وبدء الاضطرابات والفتن داخل المجتمع الإسلامي الموحد، وتوزع الناس إلى شيع وأحزاب متنافسة، لكل منها فهمه الخاص لنظام

الحكم، ووسائله في الدعاية لآرائه وفهمه، ومع ذلك فقد ظلت العقيدة الدينية محور الاختلاف والخصومة بين تلك الفئات.» فقد «اتسعت دائرة الاختلاف أكثر بين المسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفي عهد علي رضي الله عنه انتشرت الفرقة بينهم، واشتدت أكثر في بداية العصر الأموي، فظهرت الأشعار السياسية التي مثلت مختلف الاتجاهات والنظريات.»

انقسم الأمويون إلى فريقين؛ أحدهما كان مؤيدا للحزب الأموي من جهة، ويقف الآخر إلى صف الحزب العلوي؛ أي بين مناصر لـ معاوية بن أبي سفيان، وآخر مؤيد لـ علي بن أبي طالب، ثم كثرت الأحزاب، وصار لكل حزب شعراء يدافعون عن ميولاتهم السياسية وقناعاتهم المذهبية، ويثبت لكل حزب رأيه وأحقية في الحكم، وتتضح معالم هذا الصراع الحزبي بعد تولي الحكم معاوية بن أبي سفيان، فانقسم الناس إلى فريقين؛ منهم من أيد الحزب الأموي المؤيد لحكم الأمويين، وفريق آخر مناصر للحزب العلوي المخالف للحكم، بالإضافة إلى ظهور أحزاب أخرى مثل: الخوارج والزبيريين.

تولى الخلافة معاوية بن سفيان بداية، ثم انتقلت إلى يزيد بن معاوية، وصولا إلى عبد الملك بن مروان، فتهاوت الشعراء بمدح حكامهم، ويقرّون بأحقيتهم في السلطة، ومثال ذلك مدح جرير للخليفة عبد الملك بن مروان: «لما مدح جرير بن الخطفي الحجاج بن يوسف بشعره الذي يقول فيه:

من سدّ مطلع التّفاق عليكم
أم من يصول كصوله الحجاج
وبشعره الذي يقول فيه:

أم من يغار على النّساء حفيظة
إذ لا يثّقن بغيره الأزواج
وقوله:

دعا الحجاج مثل دعاء نوح
فأسمع ذا المعارج فاستجابا

قال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن المكافأة، ولكني موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسر إليه بكتابي هذا فसार إليه؛ ثم استأذنه في الإنشاد فأذن له، فقال:

أتصحو أم فؤادك غير صاحي

قال له عبد الملك: بل فؤادك. فلما انتهى إلى قوله:

تعزّت أمّ حزرة ثم قالت:

ثقي بالله ليس له شريك
ومن عند الخليفة بالنّجاح

سأشكر إن رددت إليّ ريشي
وأثبتّ القوادم في جناحي

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
ارتاح عبد الملك، وكان متكئا فاستوى جالسا، وقال: من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو
ليسكت.»

ومن ذلك مدح الفرزدق لبني مروان، مؤيدا أحقيتهم بالسلطة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، هاجيا
ابن الزبير، إذ يقول:

فالأرض لله ولاها خلقيته	وصاحب الله لمعير مغلوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به	كذاب مكة من مكر وتخريب
راموا الخلافة في غر فأخطأهم	مرها صدور وفازوا بالعراقيب
والناس في فتنة عمياء قد تركت	أترافهم بين مقول و محروب
دعوا ليستخلف الرحمن خيرهم	والله يسمع دعوى كل مكروب
فأصبح الله ولي الأمر خيرهم	بعد اختلاف وصدع غير مسغوب
تثاث عثمان كانوا الأولياء له	سريال ملك عليهم غير مسلوب

لقد توسل الشعراء المداخون لبني أمية التفاخر بالحسب والنسب، واتخذوا منه مطية إلى إقرار الحكم
إليهم، يقول الزهيري: «استعمل الشعراء الحسب والنسب كخطاب ثقافي انبثقت منه صور وأنساق ثقافية
تلبست منه الشعر العربي، ويأتي ارتباط الجند مع السلطة ليقدم منظومة نسقية مكثفة عمل عليها الشعراء، وهذا
الخطاب يحتوي على أنساق عديدة مثل التفضيل الطبقي الذي جعله الشعراء خاصا ببني أمية، وأن لهم الشرف
الرفيع والمجد التليد.»

ولبعضهم رأي آخر في الأجدار بالسلطة والأحق بها من بني أمية، ونقصد بهم العلويون المنتصرين لبني
هاشم وآل علي، ومنهم الكميت بن زيد الأسدي الكوفي، «أشعر شعراء الشيعة الهاشمية، ومثير عصبية العدنانية
على القحطانية ولد سنة 60هـ، ونشأ بالكوفة بين قومه بني أسد إحدى قبائل العرب الفصحاء من مضر
فلقن العربية، وعرف الأدب والرواية، وعلم أنساب العرب وأيامها ومثالبها بمدارس العلم والأخذ عن
الأعراب، وكان له جدتان أدركتا الجاهلية تقصان عليه أخبارها وأشعار أهلها، فخرج أعلم أهل زمانه في ذلك
وأقر له حماد الراوية بالسبق عليه وقال الكميت الشعر وهو صغير وكان لا يذيعه ولا يتكسب به، ويكتفي
بحرفته تعليم صبيان الكوفة بالمسجد، ولما حصف شعره وقوي أثره، ولا سيما قصائده التي أعلن فيها تشييعه

لبي هاشم وآل علي، أنشده الفرزدق مستنصحا له في أمر إذاعته إذا أعجبه، فأمره بإذاعته فقال قصائده البليغة المطولة المسماة "بالهاشميات" التي يقول فيها:

طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ	ولا لعباً مني وذو الشيب يلعبُ
ولم يلهمني دارٌ ولا رسم من—زل	ولم يتطربني بنانٌ مخضَّبُ
ولا السانحات البارحات عشية	أمرٌ سليم القرن أم مر أعضب
ولكن إلى أهل الفضائل والنُّهى	وخير بني حواء والخير يطلـب
بني هاشم رهط النبي فإنني—ي	هم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خففت لهم مني الجناح مودة	إلى كنف عطفاه أهل ومرحـب
وما لي إلا آل أحمد شيعـة	وما لي إلا مذهب الحقّ مذهـب
بأي كتاب أم بآية سن—ة	يرى حبّهم عاراً علي ويحسـب

وأما حزب الزبيريين فقد تزعمه مصعب بن الزبير، ومن الشعراء الذين دافعوا عنه وعن حزبه عبيد الله بن قيس الرقيات، والذي مدحه منتصرا له في أحقيته بالملك.

«قال ابن قيس الرقيات في مصعب بن الزبير:

إنّما مُصْعَبٌ شِهَابٌ م—ن	اللهُ تجلّتْ عن وجهه الظلمـاءُ
يتّقي الله في الأمور وقد أف	لح من كان شأنه الاتقـاءُ
ملكه مُلكٌ رحمةٌ ليسَ في—ه	جَبَروتٌ منه ولا كبري—اءُ

أما الخوارج فيقصد بهم أولئك الذين خرجوا عن الإمام علي بن أبي طالب، وصاروا ضده هو ومعاوية بن أبي سفيان، فمروا من الدين وأكثروا في الأرض الفساد، فلم يغني عنهم إخلاصهم للدين، إذ كان «إخلاصهم لدينهم عظيماً، غير أنهم ضلوا عن المحجة، إذ مضوا يشرعون سيوفهم ويسلونها على المسلمين، كأن الإسلام لا يحيا إلا في معسكراتهم، وبذلك مروا الجماعة الإسلامية، إذ ظلوا تائرين، وظلت عقيدتهم كأها مبدأ ثوري يدعوهم دائما إلى الحرب والقتال.»

شعر الخوارج «لون من الشعر زهدي ثوري جامح، يكبر الإنسان الخارجي إكباراً شديداً، لأن كل إنسان ذهب في سبيل العقيدة يعد شهيداً، فهو المثل الأعلى في نظر أصحابه بعد استشهاد، وهو الذي يستحق الرثاء والبكاء، مثلما أن الجماعة الخارجية هي العصبة المثالية التي تمثل الحق، فهي إذن تستحق المدح والثناء؛ ومن ثم كان موضوع هذا الشعر هو الإنسان؟ الإنسان الخارجي على وجه التحديد، والحرك الداخلي فيه هو

روح التقوى المتطرفة، فهو لذلك أدب قوي يزيد من قوته شدة التلازم بين المذهب الأدبي والحياة العملية،
ويقترن فيه الصدقان: الصدق الفني والصدق الاجتماعي.

وقد ترك فيه موضوع الموت لوناً حزيناً ونغمة حزينة ولكنه لم يسلمه إلى يأس مطلق، لأن هذا الموت نفسه كان عند ذلك الشعر نوعاً من الأمل، إذ لم يعد الموت إلا دخول الجنة أو لقاء الأخوان والأحباب الأبرار الأتقياء الذين تقدموا على الطريق.»

وأما الشيعة التي ظهرت كحزب طالب بحق علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الخلافة التي سلبها الأمويين منه عنوة، وصار «التشيع ينمو في الكوفة منذ اتخذها على حاضرة لخلافته، وقد مضى كثير من أهلها بعد وفاته يؤمنون بأن أبنائه وأحفاده أهل الخلافة الحقيقيون وأصحابها الشرعيون، وأن الأمويين اغتصبوها منهم، وينبغي أن ترد عليهم.»

يقول محمود فريد: «ومروان هذا هو رابع عشر خلفاء بني أمية وآخرهم إذ ظهرت في أيامه الدعوة للعباسيين في خراسان بمسعى أبو مسلم الخراساني وذلك انه كان يوجد بالأقطار الإسلامية أحزاب قوية ضد بني أمية فمنها حزب يقول بأحقية أولاد سيدنا علي بن أبي طالب بالخلافة وآخر يقول باستحقاق أولاد العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وظهر حزب العلويين أكثر من مرة في مدة الأمويين فعاد بالخبيثة لظهوره في أوائل خلافتهم وقوة شوكتهم فقتل الحسين سنة 61 وقتل زيد بن علي بن الحسين سنة 122 وفي هاتين الواقعتين قتل كثير من أولادهم وأقاربهم حتى ضعف حزبهم وتفرق من حولهم أما بني العباس فاستعملوا التؤدة والصبر ولم يفاجئوا الأمويين في بدء ظهورهم بل بثوا أعوانهم في جميع الجهات لاستمالة الناس إلى بيعتهم ووجهوا همتهم إلى جهات الشرق مثل العراق وإيران وخراسان وما جاورها لبعدها عن مركز خلافة الأمويين وعدم تعلقهم بهم تعلق أهل الشام ومصر وثابروا على هذه الخطة إلى أن ضعف حال الأمويين وتضعف شانهم ووقع الشقاق والانقسام بينهم حتى تولى الخلافة ثلاثة في سنة واحدة وهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك ويزيد بن الوليد بن عبد الملك وأخوه إبراهيم ولم يقعد العباسيين عن هذا الثبات موت القائم بهذه الدعوة وهو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بل قام بها بعده ولده إبراهيم الإمام ولما شاع خبر مساعيهم قبض مروان على إبراهيم المذكور وحبسه في حران حتى مات وكان ذلك في سنة 129 فقام بالدعوة أخوه أبو العباس الذي لقب فيما بعد بالسفاح وفيها اظهر أبو مسلم الخراساني الدعوة للعباسيين ببلاد خراسان وحارب نصر بن سيار عامل عليها من قبل الأمويين وانتصر عليه. ودخل مدينة مرو وفي صفر سنة 132 أتى أبو العباس إلى الكوفة واختفى بها إلى يوم الجمعة 12 ربيع الأول وفيه خرج إلى الجامع وبايعه الناس بالخلافة ثم

أتى مَرْوَان لمحاربته فَهَزَمَ بالزَّابِ وَتَبَعَهُ عَسَاكِرُ الْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى أَنْ قَتَلَ فِي بُوَصَيْرٍ بِمِصْرَ فِي أَوَاخِرِ ذِي الْحِجَّةِ
سنة 132 وَبِذَلِكَ تَمَّ انْتِقَالُ الْخِلَافَةِ إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ.

وَلَمْ يَجْعَلُوا مَقَرَّ مَلِكِهِمْ مَدِينَةَ دِمَشْقَ بَلْ أَقَامَ أَبُو الْعَبَّاسِ بِالْكُوفَةِ وَكَذَلِكَ أَخُوهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ إِلَى
أَنْ بَنَى مَدِينَةَ بَغْدَادَ وَذَلِكَ لِعَدَمِ ثِقَتِهِمْ بِأَهْلِ الشَّامِ لِمِيلِهِمْ إِلَى بَنِي أُمَيَّةٍ.»

إن ازدهار الشعر السياسي كان في العصر العباسي، وإن كان كذلك في العصر الأموي إلا أنه زاد نطاقه
توسعا، «بعد انتهاء الحكم الأموي وحلول العصر العباسي، توسع نطاق الشعر السياسي، وصار الشعراء
يمدحون الوزراء، والحكام والولاة والقضاة، وتوارت بعض الأحزاب، وظهرت أحزاب جديدة، فقد ضعفت
أغلب الأحزاب السياسية التي ساهمت في ازدهار الشعر السياسي خلال العصر الأموي، مما جعل الشعر
السياسي يضعف هو أيضا.»

المحاضرة الرابعة: الزهد والتصوف في الشعر العباسي

1. الزهد:

1.1 لغة:

جاء في "لسان العرب": «زهد: الزهد والزهادة في الدنيا ولا يُقالُ الزهد إلا في الدين خاصةً، والزهد: ضدُّ الرغبة والحِرص على الدنيا، والزهادة في الأشياء كلها: ضدُّ الرغبة. زهدَ وزهدَ، وهي أعلى، يزهدُ فيهما زُهداً وزهداً؛ بالفتح عن سيبويه، وزهادة فهو زاهدٌ من قوم زهاد، وما كان زهيداً ولقد زهدَ وزهدَ يزهدُ منهما جميعاً، وزاد ثعلبٌ: وزهد أيضاً بالضم. والتزهيدُ في الشيء وعن الشيء: خلافُ الترغيب فيه. وزهدَه في الأمر: رغبه عنه. وفي حديث الزهريِّ وسئل عن الزهد في الدنيا فقال: هو أن لا يغلب الحلالُ شكره ولا الحرامُ صبره؛ أراد أن لا يعجزَ ويقصرَ شكره على ما رزقه الله من الحلال، ولا صبره عن تركِ الحرام؛ الصَّحاحُ: يُقالُ زهد في الشيء وعن الشيء. وفلانٌ يتزهد أي يتعبد، وقوله عز وجل: وكأنا فيه من الزاهدين؛ قال ثعلبٌ: اشتروهُ على زُهدٍ فيه. والزَّهيد: الحَفِيرُ. وعطاء زهيدٌ: قليلٌ. وازدَهدَ العطاء: استقلَّه. ابنُ السكيت: يقولون فلانٌ يزدهد عطاءً من أعطاه أي يعده زهيداً قليلاً. والمزهد: القليلُ المالِ. وفي حديث النَّبيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أفضلُ الناسِ مؤمناً مُزهدٌ؛ المزهد: القليلُ الشيءِ وإنما سُمِّيَ مُزهداً لأنَّ ما عنده من قَلْبِهِ يزهدُ فيه. وشيءٌ زهيدٌ: قليلٌ.»

2.1 اصطلاحاً:

الزهد علامة من علامات الرضا بما قسمه الله تعالى لعباده من أرزاق وف ق حكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، والعبد في ذلك مأمور بالشكر والحمد على حال، من غير فرح بما أوتيته من نعم ولا يأس عما حُرِمه، فعسى أن يكره شيئاً وحكمة الله تعالى تقتضي الخير في المنع، وعسى أن يحب شيئاً وهو شر له، وثمره هذا هو التسليم بما شاء الله تعالى وقدر، وانشغال العبد بطاعة ربه وعبادته، أما رزق العباد فهو في السماء وما يوعدون.

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا الْهَيْثَمُ بْنُ جَمِيلٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ يَعْنِي ابْنَ مُسْلِمٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ يَعْنِي ابْنَ مَيْسَرَةَ، عَنْ طَاوُسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ، وَإِنَّ الرِّغْبَةَ فِي الدُّنْيَا تُطِيلُ الْهَمَّ وَالْحَزْنَ.»

الزهد انصراف النفس عن رغباتها الممكنة والمرغوب فيها، أما المستحيلة أو المرغوب عنها فتلك مزهود فيها وعنهما بالفطرة، يقول ابن قدامة المقدسي: «اعلم: أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين،

والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً في نفسه، لم يسم زاهداً، كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً.

وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا، ومن زهد في كل شيء سوى الله تعالى، فهو الزاهد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها، فهو أيضاً زاهد، ولكنه دون الأول.

3.1 شعر الزهد:

يقول شوقي ضيف: «لعل مجتمعاً عربياً لم يعرف اللهو والجنون كما عرفها المجتمع العباسي في القرنين الثاني والثالث، فقد غرق الناس في الكوفة والبصرة وبغداد إلى آذانهم في الحضارة الفارسية المادية وما يُطوى فيها من غناء وخمر. وحقاً بدأت طلائع ذلك في أواخر العصر الأموي حين ظهر الوليد بن يزيد وحين أخذت الكوفة تسرف على نفسها في اللهو وما يتبعه؛ لكن ذلك لا يقاس في شيء إلى ما كان في العصر العباسي الذي شعر فيه الفرس بحريتهم، حتى لتأخذ شكل ثورة عاصفة على جميع التقاليد العربية. ومضى أبناء هذه الثورة يعبّون من كتوس اللهو والخمر حتى الثمالة، وانتشرت دورهما في كل مكان، ولم تكن تزخر بالخمر والغناء وحدهما، بل كانت تزخر أيضاً بالقيان والغلمان.

وساعد في اتساع هذه الموجة شيئان: ظهور مذاهب شاكة بلبت الأفكار وعلى رأسها مذاهب الزنادقة والدهريين، ثم انتشار دور القيان، التي كانت تعرضهن للبيع، وكانت تثقفهن وتؤدبن وتعلمهن الغناء... فإن أصحاب هذه الدور كانوا يتخذونهم لتسلية روادها وابتزاز أموالهم؛ فكانت مألفاً للشعراء يختلفون إليها، وكانوا ينظمون فيهن أشعارهم، وهن يغنينهم فيها؛ بينما هم يشربون ويقصفون، ومن غير شك كنّ من أهم الأسباب في إذاعة الشعر العباسي الحديث عند مطيع بن إياس وبشار وأبي نواس وأضرابهم، إذ كنّ يحملنهم معهم حين يُعْنَن، فيدخلن به في دار الخلافة ودور الأشراف، كما ينقلنه إلى الأمصار الإسلامية اللائي يرحلن إليها.»

4.1 من شعراء الزهد:

ظهر كثير من شعراء الزهد في العصر العباسي مثل الإمام الشافعي والإمام عبد الله بن المبارك وأبو العتاهية، وقد نهلوا ألفاظهم واستمدوا معانيهم من تعاليم الدين الإسلامي، ولعل الثقافة الإسلامية التي تشبعوا بها كان لها واضح الأثر على نظمهم، مثل تبيان حقيقة الدنيا الفلنية، والتذكير بالموت، والدعوة إلى التزود بالتقوى لإدار البقاء والخلود، حيث توفي كل نفس بم عملت، إن خيراً فروح وريحان وجنات نعيم، وإن شراً فتصلية جحيم وعذاب أليم.

من أولئك الشعراء الذي سلكوا سبيل الزهد، بل ودعوا الناس إلى توسله، الشاعر الزاهد أبو العتاهية الذي تعج أشعاره بالمعاني الإسلامية، إذ استلهم ألفاظها ومعانيها من تعاليم الإسلام الداعية إلى الزهد بتوك ما لا ينفع في الآخرة، وترك كل ما يشغل عن الله تعالى، وذلك باجتناب الحرام، وترك الفضول من الحلال، من باب كل ما يشغل العبد عن ربه فالزهد فيه أفضل.

يصف أبو العتاهية العبد الزاهد فيقول:

إِنَّ الْقَرِيرَةَ عَيْنُهُ عَبْدٌ، خَشِيَ الْإِلَهَ، وَعَيْشُهُ قَصْدُ
عَبْدٌ، قَلِيلُ النَّوْمِ، مُحْتَهِدٌ لِلَّهِ، كُلُّ فِعَالٍ لَهُ رُشْدُ
نَزَّةٌ عَنِ الدُّنْيَا وَبَاطِلُهَا، لَا عَرَضَ يَشْعَلُهُ، وَلَا نَقْدُ

ويشير أبو العتاهية إلى الزهد، رابطاً إياه بالنية الصادقة والعزم، بل ومجاورته بالأخلاق الحسنة، فيقول:

لَا يُعْجِبُنِي، يَا ذَا، حُسْنُ مَنْظَرَةٍ، لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهَا حُسْنَ مَخْبَرَةٍ
خَيْرُ اكْتِسَابِ الْفَتَى مَا كَانَ مِنْ عَمَلٍ ذَاكَ، وَصَبْرٌ عَلَى عُسْرِ وَمَيْسَرَةٍ
وَأَفْضَلُ الزُّهْدِ زُهْدٌ كَانَ عَنْ جَدَةٍ، وَأَفْضَلُ الْعَفْوِ عَفْوٌ عِنْدَ مَقْدَرَةٍ
لَا خَيْرَ، لَا خَيْرَ لِلْإِنْسَانِ فِي طَمَعٍ يَصِيرُ مِنْهُ إِلَى ذُلٍّ وَمَحْقَرَةٍ
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ ذَنْبِي، وَأَسْأَلُهُ عَيْشًا هَنِيئًا، بِأَخْلَاقٍ مُطَهَّرَةٍ

وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا، ومن زهد في كل شيء سوى الله تعالى، فهو الزاهد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها، فهو أيضاً زاهد، ولكنه دون الأول.

يستلهم أبو العتاهية ألفاظاً قرآنية في وصفه للجنة وما فيها من نعم مما لا عين رأتها ولا أذن سمعتها ولا

خطرت على قلب بشر، إذ يقول:

أَسْأَلُ عَنِ الدُّنْيَا وَعَنِ ظِلِّهَا فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ ظِلًّا ظَلِيلَ
وَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ لِلرُّوحِ وَالرِّ يَحَانَ، وَالرَّاحَةِ، وَالسَّلْسِيلِ
مَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ نَالَ الرِّضَى، مِمَّا تَمَنَّى، وَاسْتَطَابَ الْمَقِيلِ

ففي البيت الأول معنى قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلٌّ خَالِدِينَ﴾ (57) [النساء: 57]، أما في

البيت الثاني فقد استقى الألفاظ من قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18)﴾ [الإنسان: 18]، ﴿فَأَمَّا
إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (89)﴾ [الواقعة: 88، 89]

فالعاقل من أشغلته آخرته عن دنياه، وعمل ما يرضي ربه عز وجل، ليحظى بجنة عرضها السموات
والأرض أعدت للمتقين.

ويقول أبو العتاهية:

هو ربي، وحسبي الله ربي، فلنعم المولى، ونعم النصير

يستشعر أبو العتاهية عظمة قدرة الله تعالى، وأنه سبحانه حسيب عباده المؤمنين المتوكلين عليه، قال
تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)﴾ [التوبة:
129]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ
عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38)﴾ [الزمر: 38]

يقول أبو العتاهية:

المرء آفته هوى الدنيا، والمرء يطغى كلما استغنى

يقول التوحيدي: «والزهد في الدنيا أن تترعها من قلبك وهي في يدك. والذي يصحح هذا الزهد أربعة
أمور:

الأول: علم العبد أن الدنيا فانية.

الثاني: علم العبد أن وراء الدنيا داراً أعظم منها وأفضل، وهي الآخرة.

الثالث: معرفة العبد أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض
له منها.

الرابع: علمه أن الذي خلقها ذمها وحذر منها فكيف يتعلق بها؟»

إن الكيس الفطن من لا تبهره الدنيا ببهرجها، فقد بين الله عز وجل حقيقتها في مواضع كثيرة من كتابه
الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
(32)﴾ [الأنعام: 32]

يقول أبو العتاهية:

كل نفس ستوافي سعيها، ولها ميقات يوم قد وجب

جَفَّتْ الأَقْلَامُ، من قَبْلُ، بما

حَتَّمَ اللهُ عَلَيْنَا وَكَتَبَ

ويقول أيضا:

يهربُ المرءُ من الموت، وهل

ينفعُ المرءُ من الموتِ الهرب

كل نفس ستقاسي مرّة

كُرَبَ المَوْتِ، فللموتِ كرب

يبين أبو العتاهية فرار المرء من الموت، وأنى له ذلك، فكل من عليها فان، والموت مدركه حيثما كان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)﴾ [الجمعة: 8]

ورد في "أيسر التفاسير" ما نصه: «وقوله تعالى {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ} أي قل لهم يا رسولنا إن الموت الذي تفرون منه ولا تتمنونه فراراً وخوفاً منه فإنه ملاقيكم لا محالة حيثما كنتم سوف يواجهكم وجهاً لوجه ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة وهو الله تعالى الذي يعلم ما غاب في السماء والأرض، ويعلم ما يسر عباده، وما يعلنون وما يظهرون وما يخفون فينبئكم بما كنتم تعملون ويجزيكم الجزاء العادل إنه عليم حكيم.»

2. التصوف:

1.2 الماهية:

تواجه الباحث في تحديده للفظ " تصوِّف " و" صوفية" صعوبات جمة، نظرا لتضارب الآراء وتناقضها ومحاولة كل فريق إرجاع التصوِّف الإسلامي إلى مصدر بعينه، وحال المؤيدين والمعارضين للتصوف في ذلك سواء، إذ لم يتفقوا على نسبة للتصوف.

قال عبد الله التستري: «الصوفي من يرى دمه هدرا وملكه مباحا»، وقال: «الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عندهم الذهب والمدر.»
وأما أبو سعيد الخراز فيقول: «الصوفي من صفى ربّه قلبه فامتلاً قلبه نورا، ومن حلّ في عين اللذة يذكر الله.»

وذهب أبو الحسن النوري إلى القول أن: «الصوفية قوم صفت قلوبهم من الكدورات البشرية وآفات النفوس، وتحرّروا من شهواتهم حتى صاروا في الصفّ الأوّل، والدرجة العليا مع الحق، فلمّا تركوا كلّ ما سوى الحق صاروا لا مالكين ولا مملوكين.» ومعنى هذا أنّ الصوفية هم أولئك الذين حرّروا أنفسهم من أغلال العبودية حتى أصبحوا في الصفّ الأوّل والدرجة العليا مع الحق، ومعنى أنهم في الصفّ الأوّل إشارة إلى تعريف

للسوفية متواتر بين المؤرخين، بأن اسم الصوفية مشتق من أهل الصفة، وأما الدرجة العليا مع الحق فهي أعلى مرتبة وهي درجة أهل الصفة.»

هذا وقد أفرد الإمام ابن الجوزي كتاباً للرد على الصوفية أسماه "تلبيس إبليس"، فذكر فيه كيف دخل إبليس عليهم فحوّلوا الزهد الإسلامي المشروع إلى مجرد مشيخة طرق صوفية تحكمها الضلالات والبدع، إذ يقول: «فلبس إبليس عليهم (المتصوفة) في أشياء ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم فكلما مضى قرن زاد طعمه في القرن الثاني فراد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.

وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تحبطوا في الظلمات فمنهم من أراد أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم وشبهوا المال بالعقارب ونسوا أنه خلق للمصالح وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة وفيهم من كان لقلّة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري.

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات وصنفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي وجاء آخرون فهدبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة ثم ما زال الأمر ينمي والأشياخ يضعون لهم أوضاعاً ويتكلمون بواقعاتهم ويتفق بعدهم عن العلماء لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم حتى سموه العلم الباطن وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحق والهيمن فيه فكأنهم تخيلوا شخصاً مستحسن الصورة فهاموا به وهؤلاء بين الكفر والبدعة ثم تشعبت بأقوام منهم لطرق ففسدت عقائدهم فمن هؤلاء من قال بالحلول ومنهم من قال بالاتحاد وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سناً.»

التصوّف الإسلامي الحقيقي حبٌّ واتباع للرسول عليه الصلاة والسلام واتباع لمنهجه التشريعي والعقائدي والخلقي، ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كانت حياته حتى قبل نزول الوحي عليه تنطوي على معاني الزهد والتقشّف والانقطاع والتأمل في الكون، ولكن مع مرور الوقت خرج التصوّف عن تعاليم الإسلام، فوصل الأمر بمعتقديه إلى أن اتخذوا الشيوخ أنداداً لله وصار يقصد بزيارة القبور والأضرحة قضاء الحوائج وشفاء المرضى وسعة الرزق، بعد أن كانت للعبرة والقُدوة، وهكذا دخلوا في الشرك ونتيجة ذلك كلّهم رغبوا عمّا

شرّع الله إلى أن توهّموا أن رضى الله في رضى المشايخ، فاستحوذ عليهم الشيطان، إذ شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله.

2.2 مراحل الشعر الصوفي:

مر بخمس مراحل كما ذكرها عبد المنعم خفاجي إذ يقول: «إذا جعلنا التراث الشعري الصوفي قد ظهر في أوائل القرن الثاني الهجري على أيدي الحسن البصري وتلامذته من بعده، فإننا نستطيع أن نقسمه إلى مراحل زمنية متعاقبة:

المرحلة الأولى: من عام (100هـ حتى عام 200هـ، وتشمل القرن الثاني الهجري بأكمله، والخلافة العباسية في بغداد ... وفيها كان الشعر الصوفي يكوّن نفسه بنفسه، وينهض بتقاليده الفنية والفكرية ليؤصلها في أذهان الناس، وكان هذا الشعر الصوفي لمحات دالة أو قليلا من الأبيات الموجزة، ومن شعراء هذه المرحلة: رابعة العدوية (185هـ) ...

المرحلة الثانية: وتشمل قرنين من الزمان هما الثالث والرابع الهجريان، وقد كان الشعر الصوفي في هذه الحقبة في دور نهضة وازدهار، ومن شعرائه: أبو تراب عسكر بن الحسين النخشي (245هـ) ... ومن الشعراء في هذه المرحلة أبو حمزة الخراساني ...

المرحلة الثالثة: وتشمل القرنين الخامس والسادس (400-600هـ)، وفيها يتجه الأدب الصوفي إلى الحب الإلهي ومدح الرسول والشوق إلى الأماكن المقدسة، ويدعو إلى الفضائل الإسلامية، وفي هذه المرحلة نشأ الأدب الصوفي الفارسي، ونبغ من الفرس معروف البلخي والبستي (401هـ) ... ومن شعراء الصوفية في هذه المرحلة: السهر وردي الشامي (586هـ)، والرفاعي (587هـ) ... وعبد القادر الجيلاني (561هـ) ... وأبو عبد الله محمد بن أحمد الأندلسي القرشي صاحب قصيدة المنفرجة التي مطلعها:

اشتدي أزمة تنفرجي قد آذن ليلى بالبلج

وكذلك الشاعر الصوفي البرعي، وفي شعره الحب الإلهي والتغزل بالمشعر الحرام ومدح الرسول ...

المرحلة الرابعة: وتشمل القرن السابع الهجري وفيه بلغ الشعر الصوفي قمة نهضته. وظهر من أعلامه: ابن الفارض (632هـ) ويقرن بجلال الدين الرومي، ومحي الدين بن عربي (638هـ-1240م)، والبوصيري (695هـ-1295م)، وعبد العزيز الدميري المعروف بالديري (694هـ)، وابن عطاء الله السكندري (707هـ)، وسواهم، ومجد الدين الوتري، وأغلب الظن أنه من شعراء القرن السابع ...

والمرحلة الخامسة: من القرن الثامن الهجري حتى اليوم، ومن أشهر أعلام التصوف فيه الشعراي

(898-973هـ)، والناقلي (1143) وسواهما.»

3.2 من شعراء التصوف:

رابعة العدوية:

«وأما رابعة فهي بنت إسماعيل العدوية، وكانت قد بلغت من التمسك والفضل والزهد منزلة شريفة، وكانت منورة البصيرة، مطهرة السريرة، حظيت بالمكاشفات الربانية، وكان سفيان الثوري يذهب إليها ويسألها عن مسائل دينية، ويعتمد عليها، وخطبها عبد الواحد ابن زيد، فقالت له بعد أن حجته أياما ثم أذنت له: يا شهوان، أي شيء رأيته في من آية الشهوة! ألا خطبت شهوانية مثلك! ... وقال سفيان الثوري لرابعة رحمة الله عليهما: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوف النار، ولا رجاء الجنة، فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حبا له وشوقا إليه، وقالت في معنى ذلك: [المقارب]

أحبك حبتين: حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمّن سواك

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراك

فلا الحمد في ذا ولا ذا ليا ولكن لك الحمد في ذا وذاك

... وقال لها رجل: إني أحبك في الله، فقالت: فلا تعصي الذي أحببتي له وأنشدت: [الوافر]

أضمن يا فتى ترك المعاصي وأرهنه الكفالة بالخلاص

أطاع الله قوم فاستراحوا ولم يتجرعوا غصص المعاصي.»

4.2 خصائص الشعر الصوفي:

من أهم خصائص الشعر الصوفي:

أ. الشعر الصوفي عني بالنفس والحديث عنها عناية كبيرة، ولجأ إلى أسلوب التحليل النفسي الدقيق ...

ب. الشعر الصوفي برمزيته الأسلوبية والموضوعية هو صاحب نزعة سيرالية، والمذهب السيرالي يدعو

إلى التحلل من كل المنطق التقليدي، ويبين دور اللاوعي في العمل الفني. مؤكدا التداخل بين الأحلام والواقع،

فالسيرالية هي التعبير عن الفكرة في غيبة اية رقابة قد يمارسها العقل وبعيدا عن أي اهتمام جمالي، وكذلك

يتزع الشعر الصوفي الذي يتحدث عن أعماق النفس، حديث الرؤى والأحلام والعقل الباطن ...

ج. الشعر الصوفي عبر عن الحب أعظم تعبير، واتخذ مذهباً في الحياة ودعا إليه، وحرص عليه، وقد اتخذ الصوفيون الحب شعارهم في الحياة، ومذهباً إنسانياً يقبلون عليه، ويذهبون إليه، وانتهى بهم الحب إلى الحب الإلهي، فاحترقوا بناره، ثم وحدة الوجود فتاهوا في مسالكها...

د. هذا إلى ما يمثله الشعر الصوفي من ثراء المعاني واتساع الخيال، وتنوع الأغراض والقدرة على استخدام الألفاظ، والتعبير بالصورة، والموهبة والذكاء في استخدام الصور لرسم كل خطوط الفكرة ونسج خيوطها.

هـ. ويتميز الشعر الصوفي فوق ذلك كله بأنه تعبير عن وجدان الشاعر، وعن ذاته وأعماق نفسه، فهو أدب وجداني خالص وهو مذهب رومانسي حالم، وهو إشراقي التزعة، روجيه الهوى.

المحاضرة الخامسة: رثاء المدن والممالك

مما استحدثه أهل الأندلس في فن الرثاء ما يعرف بـ "رثاء المدن" وقد استلهموه من هول ما حلّ ببلاد الأندلس وتهاوي الملك فيها وسقوط ممالكها الواحد تلو الآخر، في نكبة حزّت في النفوس وكسرت الخواطر وتصدّعت منها القلوب، يقول محمد عباسة: «نظم الأندلسيون شعر الرثاء، وبعد نهاية دولة بني أمية وسقوط الأقاليم الأندلسية في يد النصارى مال الأندلسيون إلى رثاء الدول والممالك البائدة، وبرزوا في هذا الغرض نتيجة إخلاصهم لوطنهم وتعلقهم بأرض الأندلس.»

ومن شعر الرثاء استحدث الأندلسيون رثاء المدن، «والأندلسيون كانوا أقدر الناس على رثاء الممالك الزائلة، والأقطار الضائعة والدول الآفلة وندب الملوك التي تنتزع عروشها وتخلع عن سلطاتها، لم يدركهم في ذلك سابق ولم يلحقهم فيه تابع، لأن الحوادث التي دهمتهم والفتن التي شملت بلادهم، وما شاهدوا من سرعة تبدل الملوك وضياع حكوماتهم في نواح عدة من قطرهم الذي صار نهباً بين الأعيان والأقوياء، وإغارة العدو على القلاع والحصون والقرى والداكر وتنكيله بالمسلمين الأبرياء، كل أولئك وما إليه ترك في نفوسهم آثاراً ضحة وجروحا لا تندمل، وجعل شعرهم في هذه الناحية مملوءاً بالأسى والحسرة والتفجع للمصاب واستتراف الدم عليه.»

وبرز في الأندلس خلال العصر الموحد، ونتيجة استرداد الإسبان لمعظم المدن الأندلسية، وما لحق أهلها من الأذى والضرر، نوع من الشعر يسمى رثاء المدن، مع الصريخ إلى نجاتها، وأحسن من مثل ذلك عالمنا الشهير ابن الآبار بقصيدته السينية المشهورة:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

ويشاركه في ذلك أبو البقاء الرندي في قصيدته النونية:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرب بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدها دول من سره زمن ساءته أزمان»